الأمير عبد القـادر من خلال دراسة كتـاب أقنيسيـان يولي ستيبـانوفيتش: الأمير عبد القـادر 1808-1883م

Emir Abd al-Qadir through the study of the book Aqnisian Yuli Stepanovich: Emir Abd al-Qadir 1808-1883 AD

الدكتور: يعقوب حيمي

جـامعة مولود معمري - تيزي وزو

- تـاريخ الإرسال	- تـاريخ القبول	- تـاريخ النشر
2025/05/03	2025/06/04	2025/07/05

- الملخص:	- Summary:
يعتـبر الأمـير عبـد القـادر الجزائـري مـن أبـرز الشخصـيات التاريخيـة في الجزائـر والعـالم الإسـلامي خـلال القـرن التاسـع عشـر. وُلـد عـام **1808**م في كنـف أسرة مرابطيـة نبيلـة. مـع بدايـة الاحـتلال الفرنسـي للجزائـر عـام **1830**م، وجـد عبـد القـادر وطنـه يواجـه خطـرا كبـيرا مـن قـوة اسـتعمارية تهـدف إلى طمـس	Emir Abdelkader al-Jaza'iri is considered one of the most prominent historical figures in Algeria and the Islamic world during the 19th century. He was born in 1808 into a noble Moroccan family. With the start of the French occupation of Algeria in 1830, Abdelkader found his homeland facing a great threat from a colonial

الهوية الثقافية والدينية للشعب الجزائـري. في عـام **1832**م، تـم اختياره أميرا للمقاومة الجزائرية وتـولى مهمـة توحيـد القبائـل الجزائرية تحت راية الإسلام. من أبرز إنجازاته إعادة هيكلة جيشه وتأسيس دولة مستقلة في الغرب الجزائري. ولم تقتصر جهوده على الجانـب العسـكري فقـط، بـل شملت إنشاء نظام إداري متكامل ونظام ضريبي عادل، بالإضافة إلى تأسـيس مؤسسـات تعليميـة لتغذيـة الجيـل الجديـد بـالقيم الدينية والوطنية.

على الصعيد الفكري والديني، كـان عبـد القـادر مفكـرا إسـلاميا وفيلسوفا صوفيا ترك خلفه عددا من الكتابات التي تناولت مواضيع العدالـة، التسـامح، والإصـلاح المجتمعي. تشكل شخصية الأمير عبـد القـادر مثـالا فريـدا لقائـد اسـتطاع المـزج بـين القـوة العسكرية والعمق الروحي، وبين الـدين والإنسـانية. عـبر نضـاله لتحرير وطنه ورؤيته الفكرية التي تجاوزت عصره، ترك أثرا خالدا في تاريخ الجزائر والعالم الإسلامي.

power that aimed to erase the cultural and religious identity of the Algerian people. In 1832, he was chosen as the Emir of the Algerian resistance and took on the task of uniting the Algerian tribes under the banner of Islam. Among his most notable achievements were the restructuring of his army and the establishment of an independent state in western Algeria. His efforts were not limited to the military aspect, but also included the creation of an integrated administrative system and a fair tax system, in addition to the establishment of educational institutions to nurture the new generation with religious and national values.

On an intellectual and religious level, Abdelkader was an Islamic thinker and Sufi philosopher who left behind a number of writings on the subjects of justice, tolerance and social reform. Emir Abdelkader is a unique example of a leader who was able to combine military strength with spiritual depth, and religion with humanity.

Through his struggle to liberate his homeland and his intellectual vision that transcended his era, he left a lasting mark on the history of Algeria and the Islamic world.	
- Keywords:	**- الكلمات المفتاحية:**
Emir Abdelkader; Algerian resistance; French colonialism; Sufism; Jihad; Treaty of Tafna.	الأمير عبد القادر؛ المقاومة الجزائرية؛ الاستعمار الفرنسي؛ التصوف؛ الجهاد؛ معاهدة التافنة.

- مقدمة

يمثل الأمير عبد القادر الجزائري شخصية متميزة في تاريخ الجزائر والعالم الإسلامي في القرن التاسع عشر، حيث نجح في الجمع بين صفات القائد العسكري والمصلح الروحي. وفي ظل الاحتلال الفرنسي الذي بدأ عام **1830**م، ظهر عبد القادر كرمز للوحدة الوطنية والمقاومة الشعبية، متصديا لأحد أكبر التحديات التي واجهتها الجزائر في تاريخها.

يتناول كتاب الأمير عبد القادر للكاتب أقنيسيان يولي ستيبانوفيتش حياة هذه الشخصية البارزة برؤية شاملة، مبرزا مختلف جوانب حياتها. يركز الكتاب على النشأة الروحية للأمير داخل عائلته الصوفية ذات النفوذ الديني والاجتماعي البارز، موضحا كيف شكلت هذه البيئة جذور شخصيته القيادية. كما يتعمق في مراحل كفاحه المسلح ضد الاستعمار الفرنسي، حيث تمكن من توحيد القبائل الجزائرية المشتتة، وقاد مقاومة منظمة رغم شح الموارد والإمكانات. بالإضافة إلى ذلك، يكشف الكتاب عن الجانب الفكري والإنساني

للأمير عبد القادر، وهو جانب تجلى في كتاباته ومواقفه الإنسانية، مثل تدخله لإنقاذ آلاف المسيحيين في دمشق خلال أحداث الطائفية عام **1860**م. حياة الأمير عبد القادر تمثل لوحة حية للقيم الإنسانية النبيلة التي دمجت بين المقاومة والتسامح والإصلاح. إنها فرصة للتأمل في كيفية توظيف المبادئ الروحية للتغلب على التحديات السياسية والاجتماعية، وتحقيق تطلعات سامية تستلهم منها الأجيال القادمة.

- الجذور العائلية والتكوين الروحي للأمير عبد القادر

ولد الأمير عبد القادر الجزائري في السادس من سبتمبر عام **1808**م بقرية القيطنة قرب مدينة معسكر في غرب الجزائر، ونشأ في كنف أسرة مرابطية ذات مكانة دينية واجتماعية مرموقة. تعود أصول هذه العائلة إلى قبيلة بني هاشم، وهي تنسب نفسها إلى السيدة فاطمة الزهراء ابنة الرسول محمد ﷺ، مما أكسب العائلة درجة عالية من التقدير والاحترام بين عامة الشعب. أما والده محيي الدين، فقد كان شيخا للطريقة القادرية الصوفية، التي أسسها عبد القادر الجيلاني في القرن الثاني عشر وتعتبر من أقدم الطرق الصوفية في العالم الإسلامي. تميز محيي الدين بمكانته بين القبائل المحلية لحكمته وتقواه، إلى جانب دوره السياسي المهم في حفظ تماسك القبائل ومواجهة تدخلات الدولة العثمانية في الجزائر. هذا الإرث أسرى اهتمام المجتمع بالأمير عبد القادر منذ مولده، وجعله مؤهلا لدور قيادي مستقبلي بارز. نشأ عبد القادر في وسط مليء بالإيمان العميق والتربية الصوفية، وكان المحيطون به من أتباع الطريقة القادرية مما وفر له بيئة ترسخت فيها تعاليم الدين الإسلامي وقيم الزهد منذ طفولته. تمكن من حفظ القرآن الكريم كاملا وهو لم يتجاوز الخامسة من العمر، مما أثار إعجاب والده وأفراد مجتمعه. لم تقتصر تربيته على التعليم الديني فقط؛ فقد تلقى دراسات متنوعة شملت اللغة العربية، أصول الفقه، وتعاليم التصوف تحت إشراف مباشر من والده. وكان والده يركز كذلك على

تنمية شخصيته البدنية من خلال تعليمه الفروسية وفنون استخدام السلاح والرماية، حيث أصبح متمرسا ومتفوقا في هذه المهارات مما أكسبه احترام القبائل المحيطة به منذ صغره .لقد شكل هذا النسيج الغني من التربية الروحية والجسدية أرضية لبناء قائد استثنائي لا يقتصر دوره على الجوانب التقليدية داخل قبيلته، بل يتجاوز ذلك ليصبح نموذجا للقيادة التي تجمع بين البعد الروحي والكفاءة العملية. ورأى فيه والده مستقبل الرسالة العائلية التي ارتكزت على الدعوة الدينية والإصلاح الاجتماعي. مهدت تلك النشأة الفريدة الطريق أمام الأمير عبد القادر ليربط بين مبادئ الدين ومهارات القيادة، سواء خلال مقاومته للاستعمار أو أثناء سعيه لإرساء أسس الدولة التي طالما حلم بها لخدمة شعبه.

- رحلة الحج وتوسع الأفق الفكري للأمير: في عام **1825**م، قرر عبد القادر الجزائري برفقة والده محيي الدين القيام برحلة إلى الأراضي المقدسة، مكة المكرمة والمدينة المنورة، لأداء فريضة الحج .كانت هذه الرحلة طويلة وشاقة، استغرقت قرابة ثلاث سنوات، وشكلت نقطة تحول جوهرية في حياة عبد القادر على المستويين الديني والفكري وحتى السياسي.

ابتدأت الرحلة من الجزائر مرورا بتونس ومصر وصولا إلى الحجاز، وخلالها زار عبد القادر عددا من أبرز المدن الإسلامية الكبرى مثل دمشق وبغداد. في مكة والمدينة، أتم مناسك الحج وانخرط في الطقوس التي تجمع مسلمين من مختلف بقاع العالم، مما عزز لديه شعور الانتماء إلى الأمة الإسلامية الكونية. وعلى الرغم من الغنى الروحي الذي قدمته هذه التجربة، إلا أن أثرها الأكبر تجلى في إعادة تشكيل وعيه السياسي والفكري. في نتاج مروره بدمشق وبغداد، التقى عبد القادر بجملة من العلماء والمفكرين البارزين، مما أتاح له فرصة الغوص في قضايا تربط الدين بالسياسة، وفتح أمامه آفاقا جديدة حول

كيفية تحقيق توازن بينها. كذلك لفت انتباهه حركة الإصلاح الشاملة التي كان يقودها محمد علي باشا في مصر. فقد شهد عن قرب كيف عمل محمد علي على تحديث دولته من خلال إصلاحات عميقة شملت الجوانب الاقتصادية والعسكرية. كان ما يثير إعجاب عبد القادر هو نجاح محمد علي في استخدام هذه الإصلاحات لتعزيز مكانة دولته على الساحة الإسلامية والدولية، عبر تنظيم الجيش وتطوير الإدارة بطرق مبتكرة تتواءم مع التغيرات العالمية. أثرت هذه الأفكار جذريا على رؤية عبد القادر، حيث أدرك أن إصلاح المجتمع الجزائري وإعادة بنائه داخليا هو المفتاح الأساسي لمواجهة الاستعمار الفرنسي، الذي بات يهدد هوية البلاد وأمنها. كان يوقن بأنه دون إصلاح داخلي شامل يعيد القوة والوعي للمجتمع الجزائري، لن يكون بالإمكان مواجهة التحديات الخارجية أو الوقوف أمام القوى الاستعمارية.

بعد عودته من الرحلة، ترسخت لدى عبد القادر قناعة بضرورة الجمع بين الإصلاح الديني والسياسي كمقدمة لتقوية وطنه. استوحى الكثير من تجربته في البلدان الإسلامية التي مر بها ومن الإصلاحات التي عاينها أثناء رحلته. فأضحى هدفه الأساسي هو بناء مجتمع جزائري قوي ومتماسك قادر على المحافظة على ثقافته ودينه، وفي الوقت ذاته مواجهة أطماع المستعمرين والتحديات الحديثة. كانت رحلته إلى الحج بمثابة نافذة فتحت ذهنه على آفاق جديدة ورؤية أوسع للعالم الإسلامي، وأسست لأفكار نهضوية ساهمت لاحقا في تشكيل مشروعه الوطني. هذه الأفكار أصبحت ركيزة أساسية في مسيرته النضالية ضد الاستعمار الفرنسي وفي سعيه لبناء دولة جزائرية على أسس تعزز القوة والوحدة مع الحفاظ على الهوية الدينية والثقافية للشعب الجزائري.

السياق السياسي والاجتماعي الذي أطر مقاومة الأمير عبد القادر كان مليئا بالتحديات العصيبة والتحولات الجذرية التي شكلت مساره كقائد وطني .عندما عاد إلى الجزائر عام **1828**م بعد رحلة طويلة، وجد

بلاده تعيش وضعا مأساويا نتيجة الغزو الفرنسي الذي بدأ عام **1830**م حمل الاحتلال الفرنسي في طياته هدفا واضحا لاستغلال ثروات البلاد وتقويض هويتها الثقافية والدينية.

في خضم سعيها للتحول إلى إمبراطورية استعمارية، رأت فرنسا الجزائر بوابة استراتيجية نحو السيطرة على منطقة البحر الأبيض المتوسط. نفذت السلطات الفرنسية سياسات استعمارية قاسية استهدفت الأراضي الخصبة من خلال السيطرة عليها وتهجير السكان المحليين. تزامن ذلك مع تدمير القرى ونهب الموارد، وهو ما صاحبته محاولات ممنهجة لفرض اللغة الفرنسية ومحو الهوية الإسلامية. اجتماع هذه السياسات مع الانقسامات القبلية التي كانت تعاني منها الجزائر، جعل الموقف أكثر تعقيدا وساعد على تعزيز النفوذ الفرنسي بشكل سريع .ضمن هذا النسيج المضطرب، ظهر الأمير عبد القادر كقائد يجمع عليه الجزائريون وشخصية ذات رؤية عميقة.

في عام **1832**م، شرف باختياره أميرا للمقاومة الجزائرية في اجتماع شعبي كبير من قبل شيوخ القبائل. اختياره لم يكن فقط بسبب انتمائه الهاشمي ومكانة عائلته الدينية، بل أيضا لتميزه بالحكمة والشجاعة التي برزت منذ صغره. أولى خطواته كانت توحيد القبائل المتباينة تحت لواء الإسلام، واعتبر أن الانقسام الداخلي هو العقبة الكبرى أمام تحقيق الاستقلال الوطني. بناء على ذلك، بدأ بناء شبكات تحالف واسعة بين زعماء القبائل مستندا إلى دعوة الجهاد لتحرير الوطن، مستفيدا من التأثير الروحي لوالده ونفوذه داخل القبائل لترسيخ دوره كزعيم شرعي للمقاومة. كان عبد القادر واعيا بأن النجاح في مواجهة القوة الاستعمارية الفرنسية يتطلب تنظيما دقيقا ذي رؤية واضحة. لذلك عمل على إعادة هيكلة المقاومة المسلحة عبر تحسين الكفاءة العسكرية والمستوى التسليحي للمجاهدين، فضلا عن تأسيس نظام إداري يهدف إلى تمويل العمليات من خلال فرض الضرائب على القبائل

المتحالفة .بجانب التخطيط الاستراتيجي طويل الأمد، تمكن من بث روح الوطنية والدينية بين الجزائريين ليخلق بذلك دعما شعبيا واسع النطاق. مقاومة عبد القادر لم تكن مجرد رد فعل ضد الاحتلال الفرنسي، بل ارتقت إلى مشروع أوسع لإعادة بناء الدولة الجزائرية على أسس الوحدة والعدل وفق المبادئ الإسلامية والقيم الثقافية المحلية.

تعمقت رؤيته لتشمل معالجة التحديات الداخلية مثل ضعف الروابط الاجتماعية والانقسامات القبلية المتجذرة التي أعاقت وحدة الصف الوطني.

في النهاية، الظروف السياسية والاجتماعية المعقدة التي واجهها عبد القادر شكلت أساسا لتحوله من شاب متصوف ومتعلم إلى رمز للمقاومة الوطنية وقائد يحمل على عاتقه حلم الاستقلال وبناء الأمة الجزائرية.

- القيادة العسكرية وتنظيم المقاومة: حين تولى عبد القادر الجزائري قيادة المقاومة في عام **1832**م، كانت القوات الفرنسية قد عززت وجودها في مناطق متعددة بدعم من جيش منظم ومجهز بأحدث الوسائل .لكن بفضل حنكته العسكرية وتنظيمه الاستثنائي، نجح عبد القادر في مواجهة هذا التفوق، حيث أعاد صياغة استراتيجيات القتال التقليدية وأسس لقوة مقاومة تعتمد على التخطيط والانضباط.

- إعادة هيكلة الجيش: عمل عبد القادر على تقسيم قواته إلى وحدات صغيرة مدربة تدريبا جيدا، وهي خطوة غير مألوفة بالنسبة للقبائل الجزائرية التي اعتمدت سابقا على الهجمات العشوائية والفردية. جعلت هذه الوحدات المقاومة أكثر كفاءة، حيث اعتمدت على تكتيكات حرب العصابات التي شملت الكمائن والمباغتة السريعة، مستغلة التضاريس القاسية مثل الجبال والصحاري لتحقيق نجاح أكبر. من بين الاستراتيجيات البارزة لعبد القادر كانت استهداف الضعف اللوجستي للجيش الفرنسي، وذلك عبر قطع خطوط إمداده

والانسحاب المنظم عند الضرورة. هذه التكتيكات أربكت الجيش الفرنسي وأجبرته على التكيف مع أنماط قتال جديدة كانت غير مألوفة لديه.

- **النظام الإداري**: كداعم للمقاومة لم يقتصر إنجاز عبد القادر على الجانب العسكري فحسب، بل أظهر قدرة استثنائية في إدارة المناطق التي سيطر عليها .أنشأ نظاما إداريا متينا مبنيا على اختيار قادة محليين تولوا جمع الضرائب وتنظيم الموارد لدعم الجيش .تمت إدارة هذا النظام بناء على العدالة، حيث فرضت الضرائب وفقا لقدرة كل قبيلة، مما عزز من ثقة السكان المحليين وأمن لهم دعما مستمرا للمقاومة.

- **إنشاء دولة مستقلة**: أسس عبد القادر دولة مستقلة في غرب الجزائر، ضمت عددا من المدن والقرى بتسيير إداري وقضائي قائم على مبادئ الشريعة الإسلامية. عكست هذه الدولة نموذجا للعدالة وحل النزاعات بأسلوب يضمن استقرار السكان .ولم يقف جهده عند هذا الحد، إذ أنشأ مؤسسات تعليمية هدفت إلى تثقيف الشباب ورفع مستوى الوعي الديني والوطني .كان ذلك جزءا من رؤيته لضمان استمرارية مشروعه الوطني، بحيث يمتد أثره إلى ما بعد الحرب، جامعا بين المقاومة المسلحة وبناء أسس الدولة.

- **المعارك البارزة**: معركة المقطع يبرز الكتاب معركة المقطع كواحدة من أهم المواجهات التي خاضها الأمير عبد القادر ضد الاستعمار الفرنسي، حيث تمكنت قواته من تحقيق نصر كبير على الجيش الفرنسي. اعتمد الأمير في هذه المعركة على حنكة عسكرية تميزت باستخدام تكتيكات الكمائن والهجمات المباغتة، مستفيدا بشكل كبير من المعرفة الدقيقة للتضاريس المحلية .أتت هذه المعركة برسالة واضحة إلى الفرنسيين أن الشعب الجزائري عازم على مواصلة المقاومة، بغض النظر عن قوة الاحتلال.

- الدبلوماسية كوسيلة استراتيجية: إلى جانب براعته العسكرية، عُرف عبد القادر بمهاراته الدبلوماسية الفريدة .أبرم مع الفرنسيين اتفاقيات مرحلية مثل معاهدة التافنة **1837**م، التي أقرت بسلطته في عدة مناطق .لم تكن هذه الاتفاقيات مجرد هدنة لوقف المعارك مؤقتا، بل استغلها أيضا لإعادة بناء قواته وتنظيم صفوفه .وساهم في توحيد القبائل الجزائرية تحت راية واحدة، مستخدما الدين كعنصر أساسي في تحفيز الجهاد .لم يكن هذا التوحيد إنجازا عسكريا فحسب، بل كان خطوة اجتماعية فاعلة للتغلب على الانقسامات الداخلية في المجتمع الجزائري .إن قيادة عبد القادر لم تكن مجرد وسيلة للدفاع عن الأرض، بل مشروعا أشمل لبناء دولة حديثة قادرة على مواجهة الاستعمار. كان يدرك أن المواجهة مع الفرنسيين لا يمكن أن تقتصر على الجانب العسكري وحده، بل تحتاج إلى توظيف الدبلوماسية كأداة لاكتساب وقت ومصادر لإعادة تنظيم صفوف المقاومة. من هذا المنطلق، كانت اتفاقيات السلام التي وقعها مع فرنسا خطوات محسوبة تهدف إلى إدارة الصراع بذكاء وتعزيز مكانته في وجه خصم قوي.

- اتفاقية دي ميشال 1834م: بعد سلسلة من المعارك العنيفة التي أثبتت قوة مقاومة عبد القادر، وجد الفرنسيون أنفسهم عاجزين عن تحقيق انتصار حاسم بحلول عام **1834**م نتيجة لذلك، أبرموا اتفاقية دي ميشال التي اعترفت بسلطة الأمير في مناطق غرب الجزائر. اعتبر عبد القادر هذه الاتفاقية فرصة استراتيجية لوقف التصعيد مؤقتا، حيث استفاد منها لترتيب أوضاع جيشه والعمل على بناء دولته الناشئة. وفرت له الاتفاقية هدنة سمحت بإعادة التنظيم، وتعهد الجانب الفرنسي بعدم التدخل في المناطق الواقعة تحت سيطرته مقابل التزامه بتجميد العمليات العسكرية .غير أن الفرنسيين سرعان ما نقضوا الاتفاقية عندما شعروا بأن نفوذ الأمير آخذ في التوسع بشكل يهدد مصالحهم. أدى خرقهم للاتفاق إلى استئناف القتال، مما زاد من

تعقيد العلاقة بين الطرفين وأعاد النزاع إلى واجهة المشهد السياسي والعسكري.

- معاهدة التافنة عام 1837م: جاءت كنتيجة طبيعية لتصاعد المقاومة الجزائرية تحت قيادة الأمير عبد القادر، الذي أجبر الفرنسيين على خوض مفاوضات جديدة بعد أن تكبدوا خسائر جسيمة في مواجهته .تميزت هذه المعاهدة بكونها أكثر شمولية من اتفاقية دي ميشال السابقة، حيث أقرت فرنسا بسيطرة الأمير عبد القادر على مساحة واسعة من الأراضي في غرب ووسط الجزائر. استغل عبد القادر هذه الهدنة لتعزيز قواه العسكرية والإدارية، فكانت مرحلة مناسبة لبناء جيش نظامي قوي، إلى جانب إنشاء مؤسسات تعليمية وإدارية تساهم في تحقيق الاستقرار في المناطق الواقعة تحت سلطته. كما سعى إلى تحسين علاقاته مع القبائل المحلية، ما عزز دعمهم له وساعده على تقوية قاعدته الشعبية .لم تكن هذه المعاهدة مجرد رهان قصير الأمد بالنسبة لعبد القادر، بل جزءا من استراتيجية مدروسة وطويلة المدى، حيث وظفها لكسب الوقت لتخفيف الضغط على قواته وللاستعداد لاستئناف المعارك بشكل أقوى وأكثر تنظيما.

وبالرغم من أن الفرنسيين لم يلتزموا تماما بما تعهدوا به، إلا أن عبد القادر توقع هذا الأمر وظل مستعدا لاستئناف الكفاح. هذه الانتهاكات المتكررة من الجانب الفرنسي زادت من عزيمته وقادت إلى تصعيد المقاومة وترسيخ مكانته كرمز شرعي وحيد للكفاح الوطني. أثمرت هذه الاتفاقيات عن تحقيق عدة أهداف استراتيجية لعبد القادر، أبرزها:

- إعادة تنظيم الجيش وتطوير قدراته خلال فترة الهدنة.

- تعزيز شرعية عبد القادر الدولية، حيث اعترفت فرنسا ضمنيًا بمكانته كقائد.

- توسيع نفوذه الإداري عبر تأسيس مؤسسات تنظم الضرائب وتوفر التمويل اللازم .

ورغم أن الفرنسيين حاولوا استخدام هذه الاتفاقيات لتقليل خطورة المقاومة وترسيخ وجودهم، إلا أن عبد القادر عرف كيف يستفيد منها بطريقة تتجاوز توقعاتهم. من خلال استغلال الدبلوماسية بذكاء وحنكة سياسية، أثبت عبد القادر أن القيادة الناجحة لا تعتمد فقط على القوة العسكرية، بل تتطلب أيضا براعة في المناورة الدبلوماسية والتخطيط الاستراتيجي بعيد المدى.

- استسلام الأمير عبد القادر ونفيه إلى دمشق: جاء بعد سنوات طويلة من المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي، حيث واجه ضغطا عسكريا واقتصاديا هائلا بحلول عام **1847**م، ومع تدهور الوضع العسكري وظروف الحصار، اتخذ قرارا صعبا بالاستسلام لضمان سلامة أتباعه وأسرته .سلم نفسه للجنرال الفرنسي لاموربير وفق اتفاق يضمن الأمان له ولمن معه، مع حرصه على إظهار شجاعة واحترام جعلت حتى أعداءه يُقدّرونه. لكن فرنسا لم تلتزم بما تعهدت به تماما، إذ قامت بنقله إلى قصر أمبواز تحت الإقامة الجبرية.

بعد الإفراج عنه عام **1852**م، بشرط عدم العودة إلى الجزائر، اختار عبد القادر الاستقرار في دمشق عام **1855**م هناك بدأ حياة جديدة وسط أجواء هادئة بعيدا عن الصراعات، حيث انخرط في نشاط فكري وروحي بين أبرز علماء ومفكري المدينة. تمكن من بناء شبكة علاقات واسعة واحترمته مختلف فئات المجتمع بما فيها المسلمين والمسيحيين. في أحداث عام **1860**م التي شهدت اضطرابات طائفية بين المسلمين والمسيحيين، برز موقفه الإنساني البطولي كرمز للتسامح والعدالة. أقدم بحزم على حماية المسيحيين خلال الهجمات العنيفة، ففتح منزله كمأوى ودعمهم بقوات خاصة لتأمين سلامتهم في دور العبادة ومنازلهم. تقدّر تدخلاته بأنها أنقذت آلاف الأرواح، ولم

تقتصر جهوده على الإنقاذ فحسب، بل دافع عن المظلومين أمام السلطات المحلية، مؤكدا على واجبه الديني والإنساني. هذا العمل أكسبه تقدير عالمي وإشادات من شخصيات بارزة مثل نابليون الثالث والملكة فيكتوريا. إلى جانب أدواره الإنسانية، استغل عبد القادر سنواته في دمشق في التأليف والدراسة، وترك إرثا فكريا غنيا يجمع بين الصوفية والفلسفة.

عبر كتاباته العميقة عن فهمه للعلاقة بين الدين والسياسة والإنسانية. ظل رمزا حيا للتعايش والتسامح حتى وفاته عام **1883**م في سوريا، قبل نقل رفاته لاحقا إلى الجزائر كجزء من التكريم الوطني له. سنوات النفي كانت فرصة لعبد القادر لتعزيز مكانته كقائد إنساني ومفكر عالمي .رغم غيابه عن المشهد السياسي الجزائري، إلا أن قيمه ومواقفه ألهمت الأجيال وبقيت تعكس القيادة الحقيقية التي تتعدى حدود المعارك لتشمل الدفاع عن المبادئ الإنسانية والعيش المشترك.

- الإرث الفكري والديني للأمير عبد القادر الجزائري: لم يقتصر على كونه قائدا عسكريا فذا، بل تجاوز ذلك ليصبح شخصية فكرية مؤثرة تركت بصمة واضحة في الفكر الإسلامي والصوفي. يعرض الكتاب إنجازاته ككاتب وفيلسوف وشاعر تأثر بعمق بالصوفية، التي شكلت جوهر حياته وانعكست بجلاء في أفكاره وأعماله.

الصوفية كدعامة فكرية وروحية كانت جزءا أصيلا من حياة الأمير، حيث استلهم مبادئها من الطريقة القادرية التي تعلمها عن والده محيي الدين .جسد تلك المبادئ في حياته وسلوكياته اليومية، معتبرا التصوف وسيلة لتنقية النفس وتوجيهها نحو الحق .كما ربط الروحانية بقيم القيادة، سواء على الصعيد السياسي أو الاجتماعي، مما جعلها جزءا أساسيا من رؤيته الإصلاحية.

في مجال الفكر والأدب، تناول الأمير عبد القادر العديد من القضايا الجوهرية مثل العدل، التسامح، والتعايش بين الأديان. انطلق

في كتاباته من فهم عميق للنصوص الدينية التقليدية مع تقديم منظور فلسفي روحي يجمع بين التصوف والفكر الفلسفي .هذه المزاوجة منحت أعماله غنى وعمقا استثنائيين، إذ كانت رؤاه تركز على العلاقة بين الإنسان وخالقه وبين الإنسانية جمعاء. يعكس الكتاب أيضا التزام الأمير بمبادئ التسامح الديني، والتي تجلت في مواقفه العملية .كان يؤمن بأن الإسلام يدعو إلى الاحترام المتبادل بين البشر بغض النظر عن دياناتهم وخلفياتهم الثقافية. موقفه الشجاع خلال أحداث دمشق عام **1860**م، حين أنقذ آلاف المسيحيين من مذابح طائفية، يعد دليلا عمليا على تمسكه بهذه القيم التي نادى بها في كتاباته.

على صعيد إصلاح المجتمع الإسلامي، أظهر الأمير عبد القادر اهتماما كبيرا بمعالجة التحديات التي فرضتها الحقبة الاستعمارية .كان يرى في التعليم وسيلة أساسية لإحياء الأمة الإسلامية وإعادة إحيائها. شدد على أهمية محاربة الجهل، الذي اعتبره السبب الرئيسي لضعف المجتمعات الإسلامية، داعيا إلى تعزيز الوحدة الوطنية والمبادئ النبيلة كخطوة أساسية نحو التقدم والنهضة.

تحليل شخصية الأمير عبد القادر الجزائري يكشف عن تميز استثنائي يجمع بين الصفات الروحية، الفكرية، والسياسية، مما جعله قائدا بارزا وشخصية تاريخية ذات تأثير عميق على المستويين المحلي والعالمي.

- القوة الروحية والالتزام الديني: ارتبط الأمير عبد القادر منذ طفولته بالطريقة الصوفية القادرية، والتي أسهمت في تشكيل منظومته الأخلاقية والروحية. غرس هذا الانتماء في نفسه قيم الزهد والورع والتواضع، مما ساعده على بناء شخصية رشيدة ومتوازنة .كان ينظر إلى الدين باعتباره أكثر من مجرد عبادة فردية، بل نهجا شاملا لتنظيم المجتمع وتوجيه العمل السياسي والاجتماعي. كان التزامه بالدين عميقا وجوهريا، إذ لم يكتف بمظاهر التدين السطحية، بل وظف القيم

الإسلامية في اتخاذ قراراته المصيرية. رأى في الجهاد ضد الاحتلال الفرنسي واجبا دينيا وأخلاقيا، واعتبر أن مقاومة الظلم والاستبداد واجب شرعي لتحقيق العدالة الاجتماعية وحفظ الكرامة الوطنية.

- الذكاء السياسي ومهارات القيادة الدبلوماسية: تمتع الأمير عبد القادر بقدرة سياسية لافتة تمثلت في نجاحه في توحيد القبائل الجزائرية التي كانت تعاني من التشرذم والصراعات الداخلية. أدرك منذ البداية أن تحقيق الوحدة الوطنية يعد العامل الأساسي لمواجهة القوة الاستعمارية وتمكين المقاومة .استطاع استخدام الدين كقاسم مشترك لبناء التحالفات المختلفة وتقوية روابط التضامن بين القبائل .تميز أيضا بقدرته البارعة على التفاوض والدبلوماسية، كما يظهر في استغلاله معاهدة التافنة عام **1837**م كوسيلة لتأجيل الصراع المباشر وإعادة تنظيم قواته .أثبتت هذه الاستراتيجية أن عبد القادر لم يكن مجرد قائد عسكري، بل كان أيضا سياسيا مخضرما يمتلك رؤية بعيدة المدى تجمع بين التخطيط الدقيق والمرونة التكتيكية. قدرته على تحقيق التوازن بين العمل العسكري والتفاوض الدبلوماسي أكسبته الاحترام حتى من خصومه.

- القيادة العسكرية الفذة: من الناحية العسكرية، كان عبد القادر مثالا للقائد المحنك الذي استطاع توظيف استراتيجيات حربية مبتكرة تجاوزت حدود الإمكانيات المادية المحدودة التي كانت متاحة له. برع في تطبيق تكتيكات حرب العصابات واستغلال التضاريس الجغرافية لصالحه، مما مكنه من تحقيق انتصارات ملموسة ضد الجيش الفرنسي ذي العتاد المتفوق. على الرغم من قلة الموارد البشرية والعسكرية، نجح في تشكيل جيش منظم يتميز بالانضباط والقدرة على مجابهة القوى الاستعمارية. جسدت معاركه الكبرى، مثل معركة المقطع، نموذجا ملهما للشعب الجزائري وأثبتت إمكانية التصدي للاستعمار عبر التخطيط والتنظيم الاستراتيجي. هذه الإنجازات لم

تقتصر على البعد العسكري فقط، بل ساهمت في ترسيخ روح المقاومة لدى الجزائريين وشحذ إرادتهم الوطنية.

- الإنسانية وأثرها في شخصية الأمير عبد القادر: يُعد الجانب الإنساني من شخصية الأمير عبد القادر الجزائري أبرز السمات التي حظيت باهتمام المؤرخين والكتّاب. فرغم الصراعات الحادة مع الاحتلال الفرنسي، أظهر الأمير نزعة تحكمها القيم الإسلامية الأصيلة الداعية إلى العدل والرحمة، حيث تعامل مع الأسرى الفرنسيين بأسلوب يعبّر عن سمو أخلاقه ومبادئه الدينية. ولم تقتصر إنسانيته على ساحات الحرب فقط، بل تجلت بوضوح خلال سنوات نفيه إلى دمشق، عندما تصدى لمذبحة طائفية في عام **1860**م، مسهما في إنقاذ آلاف المسيحيين من الإبادة .هذا الموقف جعل منه شخصية عالمية رمزية للتسامح والتفاهم بين الأديان، ومثالا حيا للقيم الإنسانية التي ينبغي أن تتجسد في القادة.

- رؤية تجمع بين الأصالة والمعاصرة: امتاز عبد القادر برؤية استشرافية تنبثق من موازنة دقيقة بين الحفاظ على هوية الأمة الإسلامية والاستفادة من مكتسبات العلوم الحديثة. فقد أدرك أهمية التعليم والتحديث في بناء مجتمع قوي قادر على التصدي للمخاطر الداخلية والخارجية. هذا الجمع بين التقاليد الراسخة والحداثة المتطورة أكسبه صفة الشخصية المتميزة التي تجاوزت مستوى القيادات التقليدية في عصره، مسجلا بذلك صفحة مشرقة ضمن تاريخ النهضة الإسلامية. القائد النموذجي بين الروحانية والواقع لم يكن الأمير عبد القادر الجزائري مجرد قائد عسكري أو رجل سياسة فحسب، بل جسّد نموذجا فريدا للقيادة الإسلامية التي توحد البعد الأخلاقي مع المهارة العملية. شخصيته التي اتسمت بعمق الروحانية ودقة التعامل مع واقع عصره، جعلت منه أيقونة ليس فقط في التاريخ الجزائري، بل أيضا في الموروث الإنساني العالمي. فقد أثبت بعمله

وكيفية قيادته للأمة أن القائد الحقيقي هو الذي يوازن بين الالتزام الديني السامي واستيعاب متطلبات المجتمع الحديث.

- الخاتمة

رمز خالد للمقاومة والفكر تعد شخصية الأمير عبد القادر الجزائري واحدة من أبرز الأعلام التي تركت أثرا عميقا في التاريخ العربي والإسلامي. فهو لم يكن فقط رمزا للمقاومة ضد الاستعمار الفرنسي، ولكنه أيضا كان مفكرا وفيلسوفا صوفيا ذا نظرة دينية وإنسانية شاملة. مواقفه البطولية وحكمته السياسية جعلتا منه قائدا استثنائيا استطاع توحيد الشعب الجزائري في مواجهة أقوى القوى الاستعمارية خلال القرن التاسع عشر.

عاش الأمير حياة مليئة بالتحديات والمحن، إلا أنه ظل متمسكا بالنضال العسكري والسياسي والدبلوماسي من أجل تحقيق مستقبل أفضل لشعبه. لقد استند إلى قيم العدل والتسامح وتعزيز التعايش بين الأديان التي تخللت مسيرته الفكرية وكتاباته وأعماله العملية .وقد تمكن خلال حياته الحافلة من أن يوضح كيف يمكن للدين أن يكون مصدر إلهام لتحقيق العدالة والمساواة الاجتماعية، ونموذجا لبناء مجتمعات متماسكة مزدهرة .لم تكن مقاومة الأمير مسألة عادية، فقد اعتمد على وحدة الأمة الجزائرية، متجاوزا الفروقات القبلية، وسعى إلى بناء تحالفات استراتيجية مدروسة تسهم في تقوية الصف الداخلي أمام التحديات الخارجية. ومع شح الموارد حينئذ، وظف تكتيك حرب العصابات بذكاء وفطنة عسكرية أهلته لتحقق انتصارات بارزة ضد المحتل الفرنسي.

وحتى عندما اضطر للاستسلام بعد سنوات طويلة من النضال، حرص على ضمان سلامة شعبه وأظهر بذلك أعلى درجات المسؤولية والحس الإنساني .وبالإضافة إلى كفاحه العسكري، ساهم الأمير عبد القادر من خلال رؤاه الفكرية والدينية في معالجة قضايا اجتماعية

وإنسانية جوهرية .فقد كان يؤمن بأن الإصلاح لا يقتصر على حمل السلاح فقط، بل يشمل أيضا غرس تعليم القيم والمبادئ الدينية والإنسانية السامية في أجيال المستقبل؛ لتأسيس مجتمع قادر ينعم بالاستقرار وينهض بتحديات العصر بوعي مستنير وبصيرة مدروسة.

كان الأمير عبد القادر الجزائري شخصية استثنائية امتازت بمواقف إنسانية نبيلة، مثلما تجلى ذلك في حادثة دمشق حين أخذ على عاتقه إنقاذ آلاف المسيحيين من أحداث طائفية كادت تؤدي إلى مذابح جماعية .هذا العمل الإنساني أكسبه احتراما واسعا، تجاوز حدود المسلمين ليشمل أتباع مختلف الأديان والثقافات، معززا صورته كزعيم عالمي يترفع عن التعصب ويجسد قيم التعايش والتفاهم .لم يتوقف أثر الأمير عبد القادر عند نطاق الجزائر أو العالم العربي فحسب، بل امتد ليصبح نموذجا عالميا يلهم الباحثين عن السلام والعدالة. عبر رسالته التي طالما دعت إلى محاربة العنف والتفرقة، استطاع أن يترك إرثا فكريا وإنسانيا خالدا، ينعكس في تصرفاته وسلوكياته النبيلة ورؤيته العميقة التي جمعت بين البعد الروحي والقوة الفكرية.

يمكن اعتبار الأمير عبد القادر أكثر من مجرد قائد عسكري؛ فقد كان مصلحا دينيا، مفكرا سياسيا، ورمزا للإنسانية في زمن تتطلب فيه التعقيدات مواجهة تتخطى القوة المسلحة .يعد إرثه الفكري والإنساني شهادة حية على أهمية تحقيق التوازن بين الدين والسياسة، وبين القوة والرحمة، وبين حب الوطن وقيم التسامح.

- المرجع:

- Юлий Степанович, О. (**1968**). Абд-аль-Кадир. [**1808**-**1883**]. Москва: Москва.